مجلة المنهل • المجلد :09 ، العدد : 01 (2023م) • ص ص 507 – 520
ISSN : 2437 - 1068 • EISSN 8392-2710

المنجز البلاغي للسكاكي في ميزان المحدثين

Al-sakaki rhetorical achievement in the balance of the muhaddithin

ط. د إسلام ميلاط (*)
مخبر المعالجة الآلية للُّغة العربيّة بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، (الجزائر).
milatislam682@gmail.com

أ.د فاطمة صغير
مخبر المعالجة الآلية للُّغة العربيّة بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، (الجزائر)
diden.bb@hotmail.fr

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
.2023/04/18	.2023/05/25	.2023/06/25

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص :

مر علم البلاغة ـ كغيره من العلوم الأخرى ـ بمراحل عديدة، اكتمل فيها نشأة و تطورا، فكثرت مسائله و تعددت مادته.وتاريخ هذا العلم يشهد أن استوائه علما قائما بذاته، كان على يد العلامة أبي يعقوب السكاكي(626هـ) في سفره الجليل " مفتاح العلوم "، و نظرا لأهمية هذه المرحلة التي اتسمت بالتقنين و التقعيد، لهيكل الدرس البلاغي القديم، فقد تناولها المحدثون بالدرس و التمحيص.

ومن الدراسين البارزين الذين تتبعوا جهود السكاكي، في محاولة منهم إلى تقييم هذه الحصيلة المعرفية من التفكير البلاغي نجد محمدا عبد المطلب، لاسيما و قد تضاربت فيها أقوال الباحثين، بين مؤيد و معارض، مما كون خلافا اقتضى إعادة قراءة منه لهذه المحطة التاريخية المهمة، متبعا منهجا علميا، يقوم على الموضوعية في النظر إلى ما كتب عن السكاكي.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة العربية؛ أبو يعقوب السكاكي؛ مفتاح العلوم؛ محمد عبد المطلب.

Abstract :

The science of rhetoric –like other sciences – passed through many stages،it completed its emergence and development, the history of this science testifies that its leveling of a stand-alone knowledge that was carried out by the scholar abu ya'qub al-sakaki (626ah) in his great book, « miftah al-uloom » the key to science,due to the importance of this stage, which was characterized by codification and complication, to the structure of the ancient rhetorical lesson.

And from the prominent academics who followed the efforts of the sakaki, in an attempt to

(*) المؤلف المراسل.

evaluate this knowledge of rhetorical thinking, we find « mohammad abdulmutallab », especially when the statements of the researchers were conflicting, between supporters and opponents, which this created a controversy that required a re-reading of this important historical station following a scientific approach, it is based on objectivity, in looking at what is written about sakaki .

Keywords :

arabic rhetoric ; abu ya'qub al-sakaki- ; the key to science « miftah al- uloom » mohammed abdul muttalib.

1. مقدمة:

كانت البلاغة منذ ـ وجدت عند العرب ـ قيمة موروثة، أثيرة عند أهلها، عزيزة لديهم، و قد تمثلت بذورها الأولى في شكل ملحوظات بسيطة كان يحكم بها العرب في الجاهلية، على ما تجود به قرائح الخطباء و الشعراء في مجالسهم الأدبية، يعللون بها جيد القول من رديئه، معتمدين في ذلك كله على الذوق الفطري، و الحس المرهف، ثم جاء الإسلام، فنمت البلاغة في ظلال القرآن، فعزز شأنها، و أعلى منزلتها، لما فيه من دقة التصوير، وبراعة التركيب، فانبرى العلماء يفسرونه و يدرسون أسلوبه محاولين إدراك إعجازه، و الوقوف على أسراره، فألفوا في مجازه و معانيه و غريبه و إعجازه، و قارنوا بينه وبين الشعر، كما أثر بصوره و تشبيهاته في أذواقهم، فصاروا يستشهدون بآياته، إضافة إلى الحديث النبوي الذي ساهم في إنماء الدراسات البلاغية باعتباره من أهم مصادر اللغة.

وفي العصر الأموي اتسعت الفتوحات الإسلامية، و اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم، فكان لرجال هذا العصر ذوقهم الخاص، و ملحوظاتهم البيانية التي أثرت البحث البلاغي، و في العصر العباسي ازدهرت الحياة العقلية العربية، و قل الاعتماد على الذوق وحده، فاحتيج إلى أن تقعد القواعد، فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (210هـ) كتابه إعجاز القرآن، ثم تلاه الجاحظ (255هـ) الذي يعد من الرعيل الأول الذين ساهموا في بناء صرح علم البلاغة، و هو و إن لم يخص هذا العلم بمؤلف، إلا أن آراءه البلاغية نجدها مبثوثة في كثير من كتبه الأدبية، و لاسيما في البيان و التبيين، و لعل أول كتاب بلاغي في تاريخ البلاغة العربية بالمعنى الصحيح هو كتاب" البديع" لابن المعتز العباسي (296هـ) لأنه لم يجاوز في موضوعاته و فنونه دائرة البحث البلاغي، و كان مدلول البديع عنده عاما، و هدف من خلاله إلى إثبات

أن البديع لم يكن من اختراع المحدثين، و أنه موجود منذ القديم في القرآن و الحديث و كلام الجاهليين و الإسلاميين، ثم جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني(471هـ) فألف كتابيه دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة، فحققت البلاغة أوج ازدهارها على يده، و تمكن بذكائه و ثاقب نظره أن يضع نظريتي علمي المعاني و البيان، و استمر الشأن على هذا الحال إلى أن ألف السكاكي(626هـ) كتابه مفتاح العلوم، فميز فيه بين هذين العلمين، و جعل كل واحد منهما على حدة، و رتب الفنون البلاغية ترتيبا منهجيا، و قسم كل قسم

منها إلى أقسام و فصول، فحول هذا الفن التعليلي إلى علم له أصوله و قواعده و مصطلحاته، ثم جاء الخطيب القزويني (737هـ) فألف كتابيه التلخيـــص و الايضاح، و أصبحت بعده البلاغة شروحا و مختصرات، مزجت فيها البلاغة مع علوم أخرى كالمنطق و الفلسفة و علم الكلام .

و تمخضت من خلال مسار التأليف البلاغي مدرستان هما : المدرسة الأدبية ، و المدرسة الكلامية، و كان ظهورهما متزامنا مع نمو هذا العلم و تطوره، على أن أبا هلال العسكري أشار إلى المدرستين بما لم يسبـق إليه، و ذلك بقوله فيما نصه : " و ليس الغرض من هذا الكتـاب سلـوك مذهب المتكلميـن و إنما قصدت فيه صناع الكلام من الشعراء و الكتاب" (العسكري، 1371 هـ – 1952 م ، صفحة 9)، و ظاهر من عبارته الإشعار بهذا التقسيم، كما نبه السيوطي(911هـ) ـ رحمه الله ـ إلى أنه أخذ البلاغة على الطريقة العربية حيث يقول : " ورزقت ـ و لله الحمد ـ التبحر في سبعة علوم : التفسير، و الحديث، و الفقه، و النحو، و المعاني، و البيان، و البديع، على طريقة العرب البلغاء، لا على طريقة المتأخرين من العجم و أهل الفلسفة (السيوطي، 2003 م ، صفحة 203) "، و لكل مدرسة خصائص و مميزات نجملها فيما يلي:

- **المدرسة الأدبية** : أهم ما يميزها هو إكثارها من الأمثلة، و الشواهد الأدبية والعربية نثرا و شعرا، مع الإقلال من التعاريف و القواعد و الأقسام، و الاعتماد في التقويـم الأدبـي على الذوق الفنـــي و حاسة الجمـال أكثر من الاعتمـاد على الفلسفيات المختلـفة و المنطقيات، و كان أســلوب كتبـها و عباراتها سهلا واضحا، و تعنى هذه المدرسة بالتكوين الأدبي، و التمرين على صناعة الجيد من الكلام و تربية الذوق الناقد " (الخولي، صفحة 126)، و أهم أعلامها : ابن المعتز العباسي (296هـ) و أبو هلال العسكري (395هـ) و عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، و ضياء الدين ابن الأثير (637هـ).
- **المدرسة الكلامية** : و قد ظهرت نتيجة لتأثير المنطق و الفلسفة و علم الكلام في الفكر العربـي، و اهتمت هذه المدرسة بتحرير المسائل و صياغة القواعد، و رسم الحدود بأسلوب منطقي جاف، كما امتازت " بالتحديد اللفظي والروح الجدلية، و العناية بالتعريف الصحيح، والحرص على القاعدة المحددة مع الإقلال من الشواهد الأدبية والاعتماد على المقاييس الفلسفية من خلقيات و طبيعيات و نحوها، و على القواعد المنطقية في الحكم بحسن الكلام و جودته، أو قبحه و رداءته " (الخولي، صفحة 126)، وأبرز أعلامها: الفخر الرازي (606هـ)، أبو يعقوب السكاكي (626هـ) ، الخطيب القزويني(737هـ) .

وتاريخ البلاغة يشهد أن السكاكي قد احتل مرحلة متميزة فيه، حتى عده بعض العلماء المؤسس الحقيقي لهذا العلم، ذلك أنه نقل البحث البلاغي من فن يعتمد على المفاضلة بين جودة القول و ركاكته،

إلى علم له أصوله و قواعده، و قد تضاربت أقوال أهل العلم في تقييم هذه المرحلة، و ممن عكف على تحقيق القول فيها، و بذل في دراستها جهودا مخلصة محمد عبد المطلب، لذلك رام هذا البحث الاعتماد على قراءته لمشروع السكاكي، إذ عول على تقديم رؤية معاصرة لهذه المرحلة، و من هنا اكتسبت هذه المرحلة طابعا إشكاليا سنعالجه ضمن التساؤلات التالية :

ما الجهود التي بذلها السكاكي في ميدان البلاغة ؟ و ما رأي العلماء فيها ؟

ـ ما الدافع الذي استدعى محمد عبد المطلب لقراءة جديدة للبلاغة السكاكية ؟ وما هي مميزات هذه القراءة، و خصوصياتها المعرفية ؟

2.مآخذ على البلاغة السكاكية :

لاحظ كثير من الباحثين المعاصرين أن المرحلة التي بدأت بكتاب " مفتاح العلوم " للسكاكي، تعتبر مرحلة تحجر و جمود للدرس البلاغي، فقد اعتمدت على التعريفات و التفريعات الاصطلاحية، " و قد جرى أسلوب تأليف المفتاح على طريقة الضبط و التقسيم و التحديد، و التدرج في توليد المسائل اللاحقة عن المسائل السابقة، والحوالة على قواعد العلوم الأخرى، وتعليل وجوه انحصار العلوم و الأبواب فيما حوته من المسائل" (الميساوي، 2015، صفحة 1894)، و بهذه الطريقة المتبعة قضت على الروح الأدبية، و الحس البياني، إذ صارت البلاغة قواعد جامدة تساعد على تقديم معرفة علمية، لكنها لاترم إلى الإبانة عن مكامن الجمال في النصوص الأدبية، و لا تنمي الملكة التي نشأت البلاغة من أجلها، و سنورد هنا جملة من انتقادات أهل الاختصاص للبلاغة السكاكية .

حينما عرض أمين الخولي في كتابه " مناهج تجديد في النحو و البلاغة و التفسير و الأدب" لمآخذاته على البلاغة القديمة، و ما آلت إليه من معارف تطغى عليها القواعد الفلسفية، و الأصول المنطقية الجافة، جعل السكاكي صاحب اليد الطولى في تعقيد البلاغة اليوم، من خلال تغييبه للذوق فيها، باعتباره الأساس في فهم دقائق المعاني، و تذوق لطائف و جمال الأساليب، و أن ضبطه إياها بتعاريف جامعة مانعة هو الذي لم يجعلها تتطور، و قد امتد تأثير هذا القول فيمن جاء بعد الخولي من باحثين في البلاغة، و الذي جعله يحكم هذا الحكم هو ما لاحظه من سلوك السكاكي في أبحاثه البلاغية مسالك العلوم العقلية، و لذلك اتفق العلماء على صعوبة فهم مراده من كلامه على غير المتخصصين في هذا العلم، إذ تغلب عليه الصبغة المنطقية و الغموض الأسلوبي، بخلاف أسلوب المتقدمين من أمثال أبي هلال العسكري و الشيخ عبد القاهر الجرجاني، فإن نسج كلامهم، وطريقة تعبيرهم، و إن كانت تستخدم الجمل المتداخلة إلا أنها تكسب قارئيهم ملكة إنشائية متينة، يقول الخطيب القزويني و هو يقارن بينه و بين الجرجاني في طريقة الصياغة : " وهو وإن فاق عبد القاهر في التقسيم، و التبويب، و تقريب

الأحكام، فلم يدرك شأوه في لطف الحس، و صفاء الديباجة، و براعة الكلام"(القزويني، 1932، صفحة 4)

و هذا العمل الذي قام به السكاكي و هو ربط البلاغة بالفلسفة و المنطق وعلم الكلام جعل شوقي ضيف يصف هذا الاتصال بهذه العلوم بالأعشاب الضارة، إذ يقول : " و ندخل في عصور الملخصات و الشروح و التعقيد و الجمود .... و توالت الشروح تفك معميات هذا التلخيص، و تلقانا أسراب تنحرف عن هذا الاتجاه و لكنها لا تكاد تضيف جديدا، و يلخص الخطيب القزويني مختصر السكاكي، و يذيع تلخيصه و تكثر الشروح عليه مليئة بأعشاب ضارة من الفلسفة و المنطق و الكلام و الأصول و النحو و من مناقشات لفظية، حتى لتختنق البلاغة اختناقا، و يتكاثر التصنيف في البديع و تلخص فنونه التي بلغت نحو مائة و خمسين أو تزيد في قصائد سموها البديعيات، و يضطرون إلى شرحها بصورة مكررة مملة" (ضيف، صفحة 6) نلاحظ من خلال هذا النص أن للعلوم المنطقية و الكلامية أثرا في تعويق مسيرة علم البلاغة، ودفعه إلى غاية غير التي وضع لها، و أن ملأ الكتب البلاغية بهذه الشوائب الدخيلة حشو لا طائل تحته.

و لا يبعد هذا عن عبارة رجاء عيد في كتابه " فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور" إذ يرى أن جفاف هذه المرحلة راجع إلى تكرار و محاكاة نصوص البلاغيين لأقوال السابقين دون الإضافة إليها، يقول في هذا الصدد " ثم رأينا ذبول هذه الدراسات، و تصوح مباحثها عند السكاكي و الفخر الرازي، و رأينا اجترار مباحث السابقين، ثم نهاية لهذا الاندحار في عصر البديعيات" .

من الذين عرضوا للحديث عن السكاكي بدوي طبانة، إذ يرى أن تصنيف البلاغة و تحويلها إلى قوانين عند السكاكي " هو الذي باعد بين معنى البيان الشامل المتسع الأطراف ، و بين أثره في إرهاف الحس و تنمية الملكات، و أصبح قواعد تحفظ و لايقاس عليها، و فقدت البلاغة قدرتها على تذوق البيان، و على تكوين البلغاء ة النقاد، و إن استطاعت أن تكون طبقات من البلاغيين يقفو بعضها أثر بعض، و هي في أكثر الأحيان صورة حائلة لأصل مشوه" (طبانة، 1988، صفحة 252) معنى هذا أن اهتمامه بالطريقة المعيارية التي تهتم بالتحديد، و استيفاء القواعد و الأمثلة، جعله لا يهتم بتذوق النصوص، و لا ينمي الموهبة، و لا يكسب الملكة .

و ذهب علي عشري الزايد إلى أن مدرسة المفتاح سعت إلى " تحويل البلاغة إلى علم تقعيدي جاف ينهض على مجموعة من القواعد التي تحفظ و تستظهر، أما القيم الجمالية في الفن البلاغي، و وظيفة هذه القيم في إيصال المعنى إلى المتلقي فلم يكن لها كبير اعتبار عند صاحب المفتاح و مدرسته من بعده ، فقد أصبحت غاية اهتمامهم الاطمئنان إلى استيفاء الفن البلاغي لأركانه الشكلية، و انطباقه على التعريف، الذي وضعوه له، و لا عليهم بعد ذلك ألا يكون هذا الفن البلاغي قد استوفى حظه

من الجمال الفني مادام قد استوفى حظه من الخضوع لقواعدهم " (الزايد، 2009، صفحة 137) ،و المتأمل في هذا الموقف، و في هذا القول يدرك أن اهتمامه كان ينصب على تقرير الأحكام البلاغية، و لا ينفي هذا وجود بعض اللمسات و الومضات التحليلية التي كانت على تذكر سبيل الاستئناس و الإيجاز.

و اتخذ أحمد مصطفى المراغي موقفا مقاربا لهذا ، حيث قال و هو ينتقد منهج السكاكي في تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة باعتبار أن العلماء قبله لم يقسموها، يقول: " و لانرى لهذا التقسيم وجها صحيحا، و لا مستندا من رواية و لا دراية " (المراغي، 1950، صفحة 32)، فقد ابتدعه بأسلوب غريب لم يقتد فيه بأحد، و لعل تتبع تأثير السكاكي في عصره، و فيما بعد عصره كان واضحا، فمفتاح العلوم و آراؤه البلاغية قد شغلت العلماء بعده، و هيمنت على مؤلفاتهم.

و يبين أحمد مطلوب أن السكاكي استمد تقسيمه للبلاغة من منطلق فلسفي خالص ، و" أن هذا التقسيم إلى علوم ثلاثة لا أساس له و لا يمكن الأخذ به في دراستها دراسة تقوم على الذوق و المقاييس الفنية، و يتضح خطأ هذا التقسيم في نواح أهمها ما يتعلق بتعريف السكاكي للمعاني و البيان (مطلوب، 1962) حتى ليضطر علي العماري إلى القول بأن السكاكي، و إن حاز قصب السبق في هذا المضمار، و ذلك بمحاولة تنظيم البلاغة العربية، عن طريق التقسيمات و الأبواب، و إنتاج بعض المصطلحات، " فقد وقع في خطأين كبيرين هما :

أولهما : الإكثار من الأمثلة المصنوعة، التي لاتفيد أدبا، و لا تهذب وجدانا....

ثانيهما : التزامه النظر العقلي في تقسيماته، و تفريعاته، و قد كان الذين قبله يستقصون النصوص، و يحاولون أن يشيروا من عرضها و نقدها و تحليلها إلى ما يشبه القواعد" (العماري، 1420 هـ - 1999 م ، صفحة 402). فلم يستطع بلاغي كالسكاكي أن يكون على خطا العلماء قبله ، بل غلبت عليه النظرة المنطقية و الأفكار الفلسفية، فكان ذلك واضحا في أسلوبه و مصطلحاته في كتابه.

و انتهى محمد أبو موسى إلى أن اعتماد السكاكي على عبد القاهر و الزمخشري كان واضحا، لكنه في المقابل " عجز عن المحافظة على الروح الأدبية، لأنه حاول أن يلخص، و المشتغلون بالبلاغة يفهمون أن تلخيص التحليلات البلاغية يفسدها، و كذلك فعل أبو يعقوب حين استخلص مادته العلمية مما ذكره الشيخان" (موسى، صفحة 38) ، كما نوه بقضية أغفلها كثير من المشتغلين بهذا العلم، و هي أن السكاكي ـ مع علو قدره و عظيم نفعه ـ "عاش في بيئة العوام، و لم تتح له ظروف حياته الإدمان و الممارسة و المعايشة حتى يكتسب ذوق هذه اللغة، و إن حفظ قدرا من قواعده" (موسى، صفحة 38)، و مراد أبي موسى من هذا أنه يبقى عيبا قادحا في مسيرة الرجل الذي لم ينشأ نشأة علمية تمكنه من

استجلاء حقائـق النصـوص، و إدراك عمق أسرارها، إذ لا بد أن تتوفر في كل مؤسس لعلم من العلوم، من القدرات الجبلية و الخلفيات المعرفية ما تؤهله لسبر أغواره و هذا ما لم يحصل للسكاكي .

و وقف يكشف عن الهدف من تأليف المفتاح، و أنه سعى إلى تيسير الدرس البلاغي و جعله في متناول من يريده، بوضع المصطلحات و ذكر الحدود يقول: " و لاشك أن أهم ما أغرى الدارسين بكتاب السكاكي هو سهولته، لأن المسائل البلاغية التي لا تعتمد إلا على العقل يسهل تحصيلها و الإحاطة بها، و صعوبة هذا الكتاب تتركز في عبارته و أسلوبه المعقد الغامض، أما مادته العلمية فما أسهلها، و لذلك حفها الصبيان لما شذبها الخطيب في كتاب التلخيص، و إن كانت لا تغني فتيلا في إدراك العلم و فقه أسراره " (موسى، صفحة 39) فقد جنى على الدرس البلاغي بهذه الطريقة ، و إن حفظ لنا أصوله في قواعد تتوارثها الأجيال.

و مؤدى ما سبق أن المآخذ التي وجهت إلى السكاكي من خلال إدراجه لمباحث المنطق و الفلسفة، و كذا قضية التفريعات و التقسيمات، و سيطرة المادة العلمية التي جمعها على المناهج التعليمية على ما فيها من اختصار و قصور، كل هذا وجد اعتراضا من دارسي البلاغة الحديثة، ورؤية جديدة للسانيين المعاصرين الذين يذهبون إلى أنه كان يروم تأسيس علم الأدب من منطلق بلاغي و نحوي و منطقـي، و أن تراجـــع الدرس البلاغـي لا يمكن أن يعـزى إلى رجل أو كتاب بعينـه، كما أن الشوائـب المنطقيـة و الفلسفية التي علقت بهذه المرحلة تعتبر مظهرا من مظاهر تجديد هذا العلم حسب رأيهم .

3.محاسن البلاغة السكاكية:

لقيت جهود السكاكي العناية و التقدير من علماء البيان، ذلك أنه أول من قسم البلاغة إلى ثلاثة فنون معان و بيان و محسنات كما سماها، بعد أن كانت تطلق و يقصد بها علوم البلاغة الثلاثة، و لعل هذا الذي دفع العلامة ابن خلدون إلى اعتباره المؤسس الحقيقي لهذا العلم، متجاهلا جميع العلماء السابقين له يقول ـ رحمه الله ـ " ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته، و هذب مسائله، و رتب أبوابه " (الحضرمي، 1406 هـ، صفحة 252) نلحظ من هذا أن السكاكي أجاد في جمع و تبويب الفنون البلاغية، و أن هذا العلم بقي تصورا مستبطنا حتى تصدى له بالتقنين و التقعيد .

ويرى محمد أبو موسى أن ترتيبه وتبويبه للمادة البلاغية كان له تأثير كبير على الأجيال اللاحقة إذ كانت البلاغة " تدرس قبله و كأنها جذاذات من الورق، في كل قطعة منها مسألة، و يختلف ترتيب هذه المسائل في الكتب البلاغية كما يختلف ترتيب هذه الجذاذات قبل أن تمتد نحوها يد تنظم و تنسق " (موسى، صفحة 597) فكانت يد السكاكي أول يد تقنن مسائل هذا العلم، بمنهج خاص و تميز في عرض المادة العلمية جعله يستقطب أنظار الباحثين.

وأشاد أحمد إبراهيم موسى بتنظيره لعلم البلاغة لولا إدماجه لعلم المنطق والفلسفة في مباحثها، حيث نبه إلى هذه الثغرة فقال " و هذا مما يحمده التاريخ للسكاكي، و لو سلم هذا القسم ـ الثالث من المفتاح ـ من مزجه بالعلوم العقلية لكان خير المؤلفات التي ألفت في البلاغة في جميع عصورها " (موسى أ.، 1969، صفحة 248)

و يؤكد شوقي ضيف على أهمية مفتاح العلوم، حيث يقول " و من الحق أن تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرازي و كأنما كان عقله أكثر دقة و ضبطا للمسائل، بل لقد كان أكثر تنظيما و أشد تقسيما، مع ترتيب المقدمات و إحكام المقاييس، و صحة البرهان و بذلك استقام تلخيصه، بحيث قلما نجد فيه عوجا أو أمتا أو انحرافا، و إنما نجد فيه الدقة و القدرة البارعة على التبويب و الإحاطة الكاملة بالأقسام و الفروع " إن في طيات هذا النص إشارة واضحة إلى الذهن الثاقب و الحس المرهف للسكاكي إذ " استطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها من آراء و ما استطاع أن يضيفه إليها من أفكار، و صاغ ذلك كله صيغة مضبوطة محكمة استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل و التسبيب، و في التجريد و التعريف و التقسيم و التفريع و التشعيب" .

و يتفق معه عباس حسن في المكانة العلمية لمفتاحه في علوم البلاغة و أن،" السكاكي خدم البلاغة خدمة جليلة بما وضع لها من قواعد و أصول جمعت شتاتها و لمت شملها و جعلتها علما قائما بذاته و مستقلا بنفسه، الأمر الذي دعا إلى الإشادة بفضله " (عباس، صفحة 64) و أشارت سهير القلماوي إلى أن السكاكي ليس هو المسؤول عن جفاف البلاغة " و لكن الواقع أن البلاغة و النقد الأدبي لابد أن يمر في هذه الأطوار دائما، بداية فطرية قوية مبعثرة، ثم دراسة حية مثمرة مؤثرة، و أخيرا خلاصة و تقنين و تقعيد جاف يؤدي بحيوية النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة " (مطلوب، البلاغة عند السكاكي ، 1384هـ – 1964 م ، صفحة 12 ، 13) يفهم من النص السابق أن تقريره للدرس البلاغي جاء استجابة لظروف و مقتضيات عصره،و أنه بذل ما في وسعه لسد حاجة زمانه.

و أبان علي عشري الزايد على ضرورة الالتفات إلى منجزه البلاغي و أنه " ينبغي أن ننوه ـ إنصافا للسكاكي و منهجه في البحث البلاغي ـ إلى أن البلاغة في إطار هذا المنهج قد تحددت لها مباحثها الأساسية على نحو من الإحكام و الدقة و التنظيم لم تعرفه قبل السكاكي، و أنه جمع شتات هذه المباحث و بوبها تبويبا منهجيا شديد الصرامة، " (الزايد، البلاغة العربية تاريخها ، مصادرها ، مناهجها ، 2009، صفحة 140)

وصرح فضل حسن عباس في ثنايا حديثه عن جهود السكاكي البلاغية، أن " البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدد مصطلحاتها تحديدا تاما، ومن يفصل مسائلها، ويفضل بعضها على بعض، وتلك حسنة لا

ينبغي أن تغفل، ولكن الكثيرين ـ سامحهم الله ـ لا يذكرون إلا السلبيات" (عباس ف.، 2011، صفحة 136)

و استنكر تأثر السكاكي بالفلسفة اليونانية ، إذ يرى أنه ظلم حينما حمله بعض النقاد مسؤولية إقحام المسائل البلاغية بالقضايا الفلسفية، على معنى أنه خلط مباحث هذه بتلك، و هذا صحيح و لكن من حيث الأسلوب، أي الطريقة التي اتبعها السكاكي في دراسة البلاغة تصلح لأن تدرس بها الفلسفة و لكنه لم يرجع البلاغة العربية إلى أصول يونانية، فالمباحث التي ذكرها في القسم الثالث من مفتاحه عربية الأصالة لكن فلسفها من حيث التبويب و التنظيم " وهذه لفتة جليلة من الشيخ (عباس ف.، 2011، صفحة 136) تدل على أن السكاكي لم يقحم المسائل المنطقية في طبيعة المادة البلاغية، فتأثره بهذا العلم كان في الشكل دون المضمون، و في الأسلوب دون المادة .

من هذا كله يظهر لنا ريادة عمل السكاكي، بسعيه إلى تكوين تصور بلاغي دقيق و شامل، لمسائل هذا العلم، و أن جمعه لفنونه لا يضير به، فقد أقام بناء معرفيا جديدا يختلف في أصوله و مناهجه عمن سبقه، لا سيما في ابتكاره ترتيبا بديعا للمادة البلاغية، التي كانت موافقة إلى حد بعيد لروح عصره، و هو و إن تجاذبته أنظار البلاغيين لإستعانته بالعلوم العقلية، في ميدان البحث البلاغي، فقد أيدته الدراسات اللسانية الحديثة. واعتبرت مفتاح العلوم في قسمه البياني ثروة بلاغية مهمة ينبغي الاهتمام بها.

4.موقف محمد عبد المطلب من البلاغة السكاكية:

من الواضح أن البلاغة السكاكية تمثل مرحلة متميزة في تاريخ الدراسات البلاغية، إذ عمدت إلى ضبط معاقد و أسس هذا العلم، و إخراجه في صورته المتكاملة، و ينطلق محمد عبد المطلب في كتابه" البلاغة العربية قراءة أخرى" من موقف المدافع عن الموروث البلاغي، مستعينا في ذلك بالمنهج التوليدي التحويلي، في ظل هجوم جماعة البعث و الإحياء في العصر الحديث، التي ترى أن انتقال البحث البلاغي من بيئة الذوق و التحليل الفني للنصوص إلى بيئة المعيارية، جعلته يتعارض مع طراوة هذا الفن، و يتبدى ذلك من تصريحه أن " الهجوم على البلاغة قد بدأ مبكرا مع حركة إحياء التراث، ثم ازداد الهـجوم في المرحلة المتوسطة، و كانت ركيزة هذا الهجوم أن البلاغـة قد تخلت عن فطريتها و انطباعيتها لتدخل دائرة العلمية، فقد تصور شيوخنا أن العلمية كانت أخطر المزالق التي سقطت فيها البلاغة، و تبرير ذلك أنها دراسة ذوقية جمالية، فتحولها إلى العلمية المنهجية فيه قضاء على معظم جماليتها، و أعتقد أن هذا الهجوم كان ظالما، لأنه شرف للبلاغة أن تكون علما من أن تكون بحوثا مبعثرة، لا تلتزم بخطة، أو منهج يضبط حركتها. "

فكان يلزم أن تجمع جذاذات البحوث البلاغية، و هذا ما رامه السكاكي في نهجه، إذ كانت البلاغة قبله متداخلة غير متميزة في كلام العلماء، منثورة في مباحثهم للفنون البلاغية، فعمل أن يلافي هذا

النقص، و قدم إلينا علم البلاغة في صورة علمية متكاملة، و هذا الاتجاه من السكاكي هو اتجاه العقل العلمي ،الذي يعنى بإعادة الصياغة و التقعيد للدرس البلاغي، " فاتهام السكاكي و مدرسته بتعقيد البلاغة، اتهام ظالم، فلم يصنع الرجل شيئا سوى أنه حول البلاغة إلى علم دقيق، فهل العشوائية تمتدح، و النظام يعاب؟ " (المطلب، 2007، صفحة 2)

فلا غرابة إذن أن يدفع محمد عبد المطلب هذه القالة الظالمة التي رمي بها السكاكي،" فلقد كان من المتوقع أن تحدث هذه النقلة لمقاييس البلاغة، منذ وقت مبكر، و ذلك بالنظر إلى النسق المعرفي الذي كان يوجه الحركة الفكرية، فما إن هل القرن الخامس الهجري حتى اكتملت العلوم العربية في شتى المجالات، و استقرت قواعدها، من نحو و صرف و أصول فقه، و فلسفة، و منطق و ما إلى ذلك، و لكن ارتباط التفكير البلاغي بدرس الإعجاز من ناحية، و بالشعر من ناحية أخرى، وقف حجرة عثرة أمام هذا التيار بالنسبة للبلاغة، و أوقفه زمنا، و كان يمكن أن يقف إلى الأبد لولا ظروف و عوامل بعثت فيه" (المطلب، 2007، صفحة 14)، فمنتج السكاكي و إن ظهر متأخرا (القرن7) فقد أثبت أسبقته في وضع قانون كلي شامل، يرجع إليه في معرفة قواعد علم البلاغة، و هذا هو شأن فحول العلماء الذين استنبطوا العلوم، كما فعل الخليل بن أحمد في علم العروض، و الإمام الشافعي في علم أصول الفقه.

و قد عجب عبد المطلب من تشنيع بعض الباحثين على منهج السكاكي و جهوده البلاغية، فلم تكن جهوده إلا خلاصة للمنجز البلاغي القديم، بمظهر محدد المعالم و المبادئ، واضح الحدود و التقسيمات، فينبغي الاعتراف " بالجهد الذي بذله القدماء في تحويل البلاغة إلى علم مكتمل الأصول و الفروع، فالعلم ليس إلا منهجا في التفكير، و كل علم يستخدم المنهج الذي يتوافق مع خواصه الذاتية" (المطلب، 2007، صفحة 2)

ثم إن سنة التطور التي مر بها علم البلاغة كغيره من العلوم الأخرى، اقتضت دخوله دائرة المقاييس العلمية، حيث كان لابد لها بعد تطورها و اكتهالها، أن تبوب و تقعد " و الحق أن السبب وراء تحول المعرفة البلاغية إلى العلمية عند السكاكي، مرده إلى الإلحاح الذي فرضه أهل زمنه في تصنيف مختصر يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي، فقدم مصنفه و ضمنه كل المطالب العلمية خلال محاور ثلاثة: محور الصرف، و محور النحو، و محور المعاني و البيان " (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 7) فغاية ما يصبو إليه هو من خلال تبنيه " البلاغة في قالب علمي، فهو إنما كان يواكب احتياجات بيئية مرحلية، ولدتها ظروف زمانية و ثقافية مختلفة، فهو في زمن فقد فيه الذوق مكانته، و انحسر الحس اللغوي الصافي، فلم يجد بدا من تحقيق ذلك الهدف من وضع أسس علوم البلاغة لتعين على الارتقاء بالذوق" (الربيعي، 1996 - 1997 م ، صفحة 415) و ليسهل بحث عناصرها، و تحصيل مسائلها.

ويرى محمد عبد المطلب أن السكاكي زاد البلاغة وضوحا وثراء، حين ارتقى بها إلى مصاف النظرة العلمية، فهو يجمع بين نظرتين أولاهما علمية و الأخرى تعليمية، و في ضوء هذا " لا نتصور أن تعاب دراسة ما بأنها أخذت ثوبا علميا منظما، بل الأوفق أن تكون العلمية صفة مدح لا ذم، و هو ما تصبو إليه أي دراسة قديمة أو جديدة " (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 2)، و لابد هنا من الإشارة إلى أن السكاكي استطاع أن يجمع شتات الأبحاث السابقة عليه، و أن ينسقها و يؤلف بينها، و يجعل من علم البلاغة علما واضح المعالم و الأسس، و من ثم كان محور الدراسات البلاغية بعده.

هذا و إضافة إلى اهتمامه بتقعيد و تنظيم أصول الدرس البلاغي، فقد سعى إلى إبراز مظاهر الجمال الفني في النصوص، و تحليل تراكيبها، و أولى المتلقي (المخاطب) عناية خاصة، بالنظر إلى كون التأثير ركيزة أساسية في العمل الأدبي، و هذا ما أسف له محمد عبد المطلب بما لاقاه من عنت بعض الباحثين حيث يقول " و مشروعية البلاغة أمر مستحق منذ أن صارت علما مكتملا، يمتلك أسسا نظرية، و إجراءات تطبيقية، و لم يحصر نفسه في البعد الجمالي وحده، بل تجاوزه إلى عملية التأكيد أو الإقناع التي ترتبط بالمتلقين في مقاماتهم و أحوالهم المتباينة ... و كل ذلك قد أتاح للبلاغة أن تتحول عن مهمتها الأولى و هي إنتاج النص، إلى مهمة جديدة هي تحليله و الكشف عن نظامه " (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 7)

كما حاول محمد عبد المطلب أن يرد على بعض الأسلوبيين في زعمهم أن البلاغة السكاكية بلاغة معيارية من جميع جوانبها، إذ كان هدفها الأسمى حسبهم تعليميا، يعنى بوضع الحدود و التقسيمات، لتقعيد عملية الإبداع الأدبي، في حين أن جوهر عمل السكاكي و وضعه القواعد و التفريعات جاء في خضم عنايته بتحليل النصوص الأدبية، ووصف جماليات الظراهر اللغوية، يقول منكرا عليهم : " وربما كان من أخطر ما ألصق بالبلاغة هو طابعها المعياري، و هي تهمة قد تكون صادقة في جانب، و غير صادقة في الجانب الآخر، يرجع صدقها إلى الكم الهائل من القواعد و القوانين التي قدمها البلاغيون كشروط أولية لإنتاج القول البليغ، أما عدم الصدق فيأتي من أن مجموعة القوانين لم تأت من تصور تجريدي، و إنما كانت ناتجا لمتابعة وصفية لمجموعة من النصوص الأدبية ... فهي متابعة وصفية، و ليست تجريدا جزئيا محدودا " (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 21)

يفهم من كلامه هذا أن صياغة السكاكي للقاعدة لم يأت من فراغ، و إنما كان امتدادا تلقائيا لمرحلة سابقة استطاع من خلالها أن يتابع ما وصله من نصوص متابعة وصفية، انتهت به في الأخير إلى استنباط القواعد و القوانين.

ثم يفيض في الرد على من تصور أن البلاغة السكاكية معيارية في منهجها، و أن حقها أن تعتمد على الوصف في الكثير من أبوابها، و يبين غلطهم في أن قبلة البلاغيين كانت وصفية تتماشى مع روح العصر،فيقول : " إن البلاغيين لم يصنعوا شيئا سوى تحديد مواصفات الظاهرة، و رصد دورها في إنتاج المعنى، بل إن النماذج التي حرموها من القبول و الحسن، لم يكن الحرمان على أساس سلطة تحكمية، بل على أساس صورتها الصياغية و قدرتها على إنتاج المعنى، أي أن مبررات الرفض كانت ذاتية في النص، كما أن مبررات القبول من داخله، لأن مقاييس الرفض و القبول نابعة من النص ذاته، لا من تجريدات ذهنية تحلق في فراغ صوري" (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 29)

و أظهر محمد عبد المطلب تشكيه على من حاول حذف المسائل المنطقية، التي حشرت في رحاب علم البلاغة، بحجة أنها ليست من صميم البحث البلاغي، فيقول " تتأكد علمية البلاغة باتساقها الجوهري مع علم المنطق، لأنها تسهدف مع الجمال إنتاج الصحة و السلامة، ومن ثم امتدت مباحثها من منطقة الصوت المفرد، إلى الكلمة المفردة، إلى التركيب المفيد، إلى التراكيب المتصلة أو المنفصلة " (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 4)

فقوة الآصرة بين العلمين ـ البلاغة و المنطق ـ مفيد للظواهر البلاغية إذ هو روح علميتها، و دليل فطريتها و انطباعيتها، والسكاكي حين مزج بين العلمين إنما سعى من وراءها إلى تأسيس مشروع معرفي هو علم الأدب.

و هذا ما توصل إليه محمد العمري من أن لب البلاغة و جوهرها عند السكاكي إنما حصل بتفاعل في بناءه العلمي بين النحو و المنطق و الشعر، و أنه " بالبحث عن علم الأدب من خلال النحو و الصرف، وصل إلى ما اعتبر إبداعا له يغطي على غيره، و هو تنظيم علم المعاني و تأطيره، فعلم المعاني الذي جاء لتكميل علم النحو في تأسيس علم الأدب في مشروع مفتاح العلوم صار مركزا، و صار النحو و المنطق (علم الاستدلال) مجرد خدم له، لقد تولد علم المعاني باعتباره لب البلاغة و مركزها عند السكاكي عبر مخاض تفاعل النحو و المنطق و الشعر في علاقتها بالمقاصد الإنسانية " (العمري، 1999، صفحة 15)

فمفتاح العلوم خرانة غنية، قد استوعبت علوما عقلية و لغوية في إطار متكامل، من منطلق حجاجي قائم الاستدلال البلاغي، فجوهر البلاغة عند السكاكي ينبني على الاستدلال، ومن ثم عمل على ربطه بعلمي المعاني و البيان، في إطار ترابط و تكامل علوم العربية مع المنطق، و قد استطاع بذكائه المتوهج أن ينتبه " إلى اكتشاف المنطقة الملتبسة التي اقتتل حولها متى بن يونس و السيرافي جاعلا إياها منطقة تعايش لا تقاتل، و هذا ما يجعله اليوم موضع عناية من طرف اللسانيين التداوليين و المناطقة فضلا عن البلاغيين المقعدين " (العمري، 1999، صفحة 43).

لقد جنى كثير من البلاغيين على البلاغة السكاكية، حينما وصفوها بأوصاف متعددة فقالوا: بأنها مرحلة جمود و تعقيد و جفاف و انحطاط و تراجع و انحدار، بينما نظر إليها محمد عبد المطلب على أنها مرحلة تقنين و تنظيم للدرس البلاغي، يقول بعد تعداده لمراحل نشوء البلاغة : " أما المرحلة الثالثة (مرحلة التنظيم السكاكية) فبدء فيها التنظيم العلمي الدقيق للبلاغة العربية و تقسيمها على علوم ثلاثة : البيان ، المعاني، و البديع (المطلب، البلاغة العربية : قراءة أخرى، 2007 م ، صفحة 21). و هذه أسبقية تحسب للسكاكي في إبتداع هذا التقسيم، تنبه لها من تمييز الزمخشري بين علمي المعاني و البيان في مقدمة كشافه، و نستطيع أن نعدها إضافة تجاهلها بعض الباحثين.

5.خاتمة :

هدف هذا البحث الإشارة إلى نتاج معايشة محمد عبد المطلب للتراث البلاغي، و تقديم تصوره و تقويمه لمرحلة التنظيم السكاكية، فقد استطاعت هذه القراءة أن تستجلي بإنصاف و تجرد قراءة المنجز البلاغي في هذه المرحلة، بغية فهمه، و سعيا لوضع بناء جديد، لا يقف عند التراث، بل يحاول ربطه بالدراسات المعاصرة، و يمكن أن نجمل النتائج التي ظهرت في البحث بما يأتي :

ـ يعد مفتاح العلوم لبنة في صرح التاريخ البلاغي، لا يمكن غض الطرف عنه، فالبلاغة السكاكية قوضت الدراسات البلاغية التي كانت قبلها، و أقامت بناء معرفي جديد يختلف في أصوله و مناهجه عما سبقه، من هنا يجب أن يعطى المفتاح مكانته التي يستحقها، نظرا لكونه ذا طابع علمي و تعليمي فهو ثروة بلاغية مهمة ينبغي الاهتمام بها .

ـ دفع محمد عبد المطلب فكرة شائعة في أوساط الباحثين، و هي أن السكاكي حول البلاغة إلى علم معياري، و لكن الإنصاف الرجل يقتضي أيضا أن نقرر أن منطلقه كان وصفيا، حين عمد إلى جمع مباحثه المنثورة، و تطبيقاته الواسعة في كتب التفسير و النحو والشعر، فاستوى على يده علم البلاغة في صورته العلمية المتكاملة، و انتقل إلى علم تحكمه قواعد و حدود، فالسكاكي يمكن أن يعد المعبر الذي انتقلت منه البلاغة إلى مرحلة لها مميزاتها و خصائصها.

ـ لاحظ محمد عبد المطلب أن الدراسات البلاغية المعاصرة تكاد تجمع أن السكاكي جعل البلاغة عقلا بعد أن كانت ذوقا، و لكنه حينما أمعن النظر وجد أن السكاكي لم يقف في هذه المرحلة عند التنظيم و التقعيد للمباحث البلاغية ـ على أهميتها ـ فحسب، و إنما امتدت جهوده إلى التطبيق و التأصيل، بما يتوافق مع حاجة عصره، وأن مراعاة العالم للأجيال ضرورة ماسة في مجال البحث العلمي.

ـ لم يقتصر دور السكاكي على نقل الأفكار السابقة فقط ، و إنما أضاف من فكره الخصب كثيرا من المباحث و المصطلحات بحيث يمكن أن يمثل مرحلة النضج الكامل للدراسات البلاغية، فقد تربع مفتاحه منذ أكثر من سبعة قرون على قمة البلاغة العربية من غير منازع.

ـ شاعت مقولة تبني السكاكي لعلمي المنطق و الفلسفة في الفنون البلاغية، لكن محمدعبد المطلب ثبتت له عكس هذه المقولة، إذ يرى أن دخول هذه العلوم مفيد للدراسات البلاغية إذ وسعت دائرتها البحثية بكثير من التعليلات و التعليقات و الإضافات.

وصلّى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه أجمعين

6.قائمة المصادر و المراجع :

1) السكاكي، أبو يعقوب، 1403هـ، مفتاح العلوم، ، ضبط و شرح: نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية.
2) العسكري، أبوهلال،1371هـ . 1952م، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار إحياء التب العربية.
3) موسى، أحمد إبراهيم،1969م، الصبغ البديعي في اللغة العربية، القاهرة، دار الكتاب العربي .
4) المراغي، أحمد إبراهيم، تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها، مصر ، مطبعة الحلبي.
5) مطلوب ، أحمد، 1950م ،البلاغة عند السكاكي، بغداد، مكتبة نهضة .
6) الخولي، أمين، (د. ت)، مناهج تجديد في النحو و البلاغة و التفسير ة الأدب، القاهرة، شركة مطابع الطناني.
7) طبانة، بدوي،1988م، البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب، و مناهجها و مصادرها الكبرى، جدة، دار المنارة.
8) عباس، حسن، (د . ت)، المتنبي و شوقي(دراسة و نقد و موازنة)، سوريا، شركة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
9) السيوطي، جلال الدين،2003م، كتاب التحدث بنعمة الله، تحقيق: الزابيث ماري سارتين، ط الذخائر، مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة،.
10) القزويني ، جلال الدين،1932م، التلخيص في علوم البلاغة، ، ،ضبطه و شرحه: عبد الرحمان البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي.
11) عبد المطلب ، محمد،2007م، البلاغة العربية: قراءة أخرى، مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر.
12) الميساوي ، محمد الطاهر ،2015م ، جمهرة مقالات و رسائل الشيخ الإمام الطاهر بن عاشور، الأردن ، دار النفائس للنشر و التوزيع .
13) العمري، محمد،1999م، البلاغة العربية : أصولها و امتداداتها، المغرب، إفريقيا الشرق.
14) أبو موسى، محمد محمد، 1408هـ ،البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، القاهرة، مكتبة وهبة.
15) ضيف، شوقي، (د . ت)، البلاغة تطور و تاريخ ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
16) عباس، فضل حسن،2011م ، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة و التبعية، الأردن، دار النفائس للنشر و التوزيع.
17) ابن خلدون ، عبد الرحمن،1406هـ، مقدمة ابن خلدون، بيروت دار القلم.
18) الزايد، علي عشري، 2009م ،البلاغة العربية ، تاريخها ، مصادرها،مناهجها، مصر، مكتبة الآداب .
19) العماري، علي،1999م، قضية اللفظ و المعنى و أثرها في تدوين البلاغة، القاهرة، مكتبة وهبة.
20) مطلوب، أحمد ،1964م ،منهج السكاكي في البلاغة، بغداد، مكتبة النهضة.
21) الربيعي، حامد صالح خلف،1996ـ 1997م، أطروحة دكتوراه تحت عنوان: مقاييس البلاغة بين الأدباء و العلماء ،قسم : البلاغة و النقد الأدبي، كلية اللغة العربية،،جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.